المستشرق بارتولد وجوده في كتابة تاريخ المشرق

الدكتور: بشار قويدر
جامعة الجزائر 2 – الجزائر

مقدّمة:

في مناسبات عديدة كنت أوجّه طلبة الدّراسات التاريخية إلى أبحاث المستشرقين على إختلاف جنسياتهم لأهميتها في حقل هذا التخصّص، ورغم التّحفضات الظاهرة هنا وهناك حول هذه المسألة إلاّ أنّ النتيجة عادة ما تكون في صفّ هؤلاء المستشرقين لجدية أعمالهم ولجهدهم الكبير الذي بذلوه في هذا المضمار.

ولعلّ أشهر هؤلاء المستشرقين على الإطلاق هو بارتولد[1] الذي سنخصه بالحديث في هذه الدراسة، وترجع أسباب شهرة هذا المستشرق إلى أصالة أبحاثه في ميدان تاريخ آسيا الوسطى التي كرس لها عمره كله وقد إكتسب بأبحاثه في هذا الإختصاص شهرة عالمية في معظم الدوائر العلمية الإستشراقية وغيرها لدرجة أن معظم مؤلفاته ترجمت إلى أغلب لغات العالم.

ولعل سر نجاحه في هذا الميدان مصدره الظروف المواتية التي أحاطته ومنها الإمكانيات المادية التي كانت تتمتع بها أسرته ومنها تشجيع أساتذته له في التعمق في ميدان تاريخ المشرق، ومنهم الأستاذ فسيلوفسكي (Veselouvski) (1848–1918) الذي وقف بجانبه ومنحه الحرية في إختيار المواضيع التي رغب في دراستها، ومنهم الأستاذ فكتور مانوفتش روزن (1849–1908) الذي وجهه توجيها سليما في ميدان البحث التاريخي، ويحتفظ له المؤرخ بارتولد بذكريات طيبة[2].

حياة بارتولد العلمية:

كرس بارتولد حياته كلها للبحث، وكان أول ما قام به حين أنهى دراسته عام 1891، رحلته إلى الخارج قصد التعمق في المعارف التاريخية والإطلاع على مناهج المؤرخين وكبار المستشرقين العالميين، فاتصل بمؤرخ الإسلام "أوغست مولر" "Muller August"[3] في ألمانيا وإستفاد من محاضراته في جامعة ألمانيا كما حضر إلى دروس ومحاضرات المستشرق الألماني نولدكه[4].

وعندما عاد بارتولد من الخارج قرر مواصلة دراسته العليا في جامعة "بطرسبرج"، فانكب على تحضير رسالته لنيل شهادة الماجيستر في التاريخ الإسلامي الوسيط، واختار "تاريخ تركستان" موضوعا لبحثه، فأعجبت اللجنة التي نصبت لمناقشة بحثه وقررت منحه أعلى شهادة في جامعات روسيا عوض شهادة الماجستير، بسبب أصالة بحثه وعمله الدّؤوب في معظم مصادر التاريخ الإسلامي وغيرها من المصنفات التي كانت في ذلك الوقت عبارة عن مخطوطات موزعة بين مكتبات العالم.

وفي عام 1892 نال بارتولد لقب أستاذ محاضر فقام بإلقاء عدد كبير من المحاضرات في تاريخ المشرق لطلبة "بطرسبرج"، وفي عام 1901 صار أستاذا مساعدا وبعد خمس سنوات رقي إلى درجة أستاذ أول، ثم عين أمينا عاما لكلية اللغات الشرقية في ما بين عامي 1906، 1910، انتخب بعدها في المجمع الأكاديمي السوفياتي فكان له الدور الأول في إصدار مجلة علمية مختصة بدراسة الإسلام وهي "عالم الإسلام"(5) التي صار رئيس التحرير بها.

وقام بارتولد بعدة زيارات علمية إلى معظم عواصم العالم الأوروبي، بعد أن قام برحلات علمية إلى معظم مراكز آسيا الوسطى فكان في هذه الرحلات والزيارات أستاذا محاضرا في تاريخ المشرق الوسيط ومستشارا في ميدان المكتبات ودور الأرشيف والمخطوطات والمتاحف العالمية.

وعقب الثورة البولشفية عام 1917، ظل بارتولد يمارس نشاطه العلمي كرئيس دائم للجنة المستشرقين السوفيات بأكاديمية العلوم السوفياتية ورئيس تحرير لمجلة تحمل إسم "إيران" تتعلق مهمتها بشؤون وتاريخ آسيا الوسطى وجغرافيتها التاريخية في العصور الوسطى(6).

ونظرا لما كسبه هذا المؤرخ من شهرة عالمية ومن حضوة لدى المستشرقين السوفيات فقد قررت أكاديمية العلوم السوفياتية إصدار طبعة كاملة لمؤلفاته على شكل مجلدات ضخمة(7) تتوزع كالآتي:

– المجلّد الأول: تركستان في فترة الغزو المغولي.

– المجلّد الثاني: في قسمين الأول في مجلد منفرد ويتناول (دراسات عامة عن تاريخ آسيا الوسطى، بحوث في تاريخ القوقاز وأوروبا الشرقية)، وأما القسم الثاني وهو أيضا في مجلد منفرد ويتناول موضوع دراسات لمسائل شتى من تاريخ آسيا الوسطى.

– المجلّد الثالث: بحوث في الجغرافيا التاريخية.

– المجلّد الرابع: بحوث في علم الآثار والمسكوكات والنقوش وعلم السلالات البشرية في آسيا الوسطى.

– المجلّد الخامس: بحوث في تاريخ الترك والمغول ولغاتهم وآثارهم الأدبية.

– المجلّد السادس: دراسات في تاريخ الإسلام والخلافة العربية.

– المجلّد السابع: دراسات في تاريخ إيران وأفغانستان وآدابهما.

– المجلّد الثامن: دراسات للمصادر التاريخية.

– المجلّد التاسع: دراسات في تاريخ الاستشراق.

ومن بين الموسوعة التاريخية عدد ضئيل منها نقل إلى اللغة العربية[8]، وسنحاول هنا التعرض لكتابة الأول وهو (تركستان) من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، نظرا لأهميته وأصالته في ما يخص المعلومات الواردة وفي المنهجية التاريخية التي حددها المؤرخ بارتولد.

وفي الحقيقة فإنّ هذا المؤلف الهام لم ينقل إلى العربية للأسف إلاّ بعد مضي 3/4 من القرن العشرين[9]، وتجب الإشارة إلى تحديد المضمون، حين وضع عنوانا صغيرا تحت العنوان الكبير (تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي).

ولذلك فإن قسما كبيرا من هذا السفر خاص بشؤون أحوال تركستان قبل الغزو المغولي لها، ففي المقدمة أجهد بارتولد نفسه في استقراء كل المصادر التاريخية والأدبية بمختلف لغاتها التي استقى منها معلومات كتابه فأشار إلى أهميتها وإلى صلتها بموضوعه.

وتدل هذه المقدمة على المجهود المضني الذي قام به هذا المؤرخ، ذلك أن أغلب هذه المصادر والمراجع رغم كل هذه المدة التي تفصلنا عن تاريخ كتابة "بارتولد" له، لا تزال لحد الآن محتفظة بقيمتها كدراسة ببليوغرافية للمصادر التاريخية التي تناولت تاريخ منطقة آسيا في العصور الوسطى[10].

وزود بارتولد كتابه بفصل تمهيدي تضمن إشارات دقيقة إلى الجغرافيا التاريخية لمنطقة آسيا الوسطى في العهود الإسلامية لا تقل أهمية عن كتاباته التاريخية، وبعد ذلك قام هذا المستشرق بتوجيه اهتمامه إلى تحليل التطور التاريخي لهذه المنطقة منذ الفتح الإسلامي لها، حتى يتمكن من توضيح الأبعاد التاريخية والظواهر الاجتماعية لمنطقة آسيا الوسطى في فترة الغزو المغولي وما تلى ذلك من أحداث، فجاء هذا الكتاب يمثل تاريخا عاما لآسيا الوسطى من القرن السابع حتى بداية القرن الثالث عشر الميلادي، وهو من الأهمية بمكان حيث صار ولا يزال المرجع الأول لتاريخ المنطقة ولا يمكن الاستغناء عنه في ميدان الأبحاث الجادة حول تاريخ المنطقة في الفترة المذكورة.

والكتاب في صورته العامة يحاول الإجابة على مجموعة من الأسئلة أهمها، ما هو الوضع الذي وجد فيه المغول آسيا الوسطى وكيف تشكل ذلك الوضع؟ وما هي الظروف التي حددت سيرة تاريخ المنطقة قبل المغول؟ وما الذي صاحب المغول على مسرح الأحداث بتركستان؟ وكيف سارت عملية إخضاع المنطقة لنفوذ المغول؟

ويمكن تلخيص محتوى هذا السفر الهام في النقاط التالية[11] :

1-كانت مقاليد الأمور قبل الفتح الإسلامي لبلاد ما وراء النهر بيد الدهاقين وهم طبقة ملاك الأراضي.

2- لم يول الخلفاء الأمويون وولاتهم العناية الكافية لفتح المنطقة نظرا لبعدها، واكتفوا بالعلاقات الودية التي كانت بينهم وبين الحكام الذين يدينون لهم بالطاعة، وهذا عكس العباسيين الذين باشروا بالإشراف على إدارة ولايات الشرق عن طريق ممثلين لهم من الأرستقراطية المحلية أمثال دولتا الطاهريين والسمانيين حيث يمثل عهدهما (821-999) عهد "الاستبداد المستنير" الذي لا يعتمد على الإصلاحات العميقة وإنما يكتفي بإقامة سلطنة متينة وقوية.

وأما الأفكار المعادية للنظام هناك فقد تجسدت في نشاط حركتي الشيعة والخوارج، وباتحاد هذه الأطراف تشكلت دولة الصفاريين فيما بين عامين (867-903).

3- اصطدمت أهداف السمانيين بمقاومة الدهاقنة والحرس التركي ممّا سهل من مهمة الأتراك في غزو بلاد ما وراء النهر، وصار السلطان المطلق متمثلا في سيادة الغزنويين، الذين حرموا الشعب حقوقه.

4- تحت حكم السلاجقة (930-1157)، والقراجنيين (932-1165) وجد الضعف طريقة إلى وحدة السلطة، وذلك تحت تأثير مبدأ الملكية الجماعية لأفراد الأسرة السائدة بين الرّحل، وقد نتج عن ذلك ظهور الإقطاع العسكري وإفلاس ملاك الأراضي (الدهاقين) وأدى تحول خاقان الترك إلى أمراء إيرانيين ذوي سلطة مطلقة إلى خروج قبائلهم عليهم الشيء الذي أعان على ظهور المغول (1148-1215) وشهات خوارزم (1077-1231) وهؤلاء بسبب تمسكهم الدائب بأهدافهم ومهاراتهم السياسية بلغو مركز الصدارة في القسم الشرقي من العالم الإسلامي.

5- إن سياسة "محمد خوارزم شاه" (1200-1220) جلبت إليه عداء الطبقة العسكرية ورجال الدين وكذلك الكتل الشعبية مما سهل من مهمة المغول.

6- كوّن "جنكيز خان" نواة جيشه من حرسه الذي جمعه من أرستقراطية السهوب وأقام نظامه على أساس متين، وليس هناك أساس للشك في صدق نوايا "جنكيز خان" حينما رغب في الدخول في علاقات تجارية مع دولة "خوارزم شاه" وقد فشل هذا الأخير بسبب مطامعه في فتح آسيا الشرقية.

وتوصل الباحث أخيرا إلى أن السهولة التي استطاع بها المغول أن يضعوا يدهم على مملكة شاهات خوارزم عام 1221، راجعة إلى تدهور الأحوال الداخلية في تلك الدولة وإلى تفوّق النظام العسكري للقوات المغولية.

حول منهجية بارتولد ونظرياته:

اشتهر بارتولد بالدقة والتحري في النقل كما تميز بالأمانة والنزاهة في الأحكام واستخلاص النظريات والحقائق التاريخية، بيد أن عنايته الفائقة بالظواهر الاجتماعية وعلاقتها بتحريك الأحداث التاريخية جعلت من بعض المؤرخين يحكمون على أنه لم يكن ماركسيا في فكره، ولكن التعمق في نظرياته لا تخلو من جوانب هامة تقربه من المؤرخين الماركسيين.

ولقد حاول بارتولد من خلال استقرائه للمصادر المختلفة محاولة جادة في تفسير تاريخ المشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ولعله من بين الأوائل الذين حاولوا تطبيق النظريات الحديثة والمنهج التاريخي على أحداث ومظاهر تطور تاريخ المشرق العربي في العصور الوسطى.

ويتضح هذا المنهج في تحليله لبعض الحركات التي قام بها الفلاحون في آسيا الوسطى وإيران، حيث أقر بأن الطبقات العليا سارعت في فترة الفتح الإسلامي لمناطقهم إلى مصالحة المسلمين للحفاظ على الامتيازات وعلى المكتسبات أيضا.

وفي الحقيقة فإن بارتولد يعد أول من اهتم الاهتمام الواسع بالتاريخ الاجتماعي والحركات الشعبية لبلدان المشرق الإسلامي، إذ انعكست بصورة واضحة على معظم أبحاثه، حيث بين من خلال ذلك مدى فعالية الطبقات الشعبية في أحداث التغيرات السياسية والحضارية، كما أنه أكد في أكثر من مناسبة أن حركة التشيع في العالم الإسلامي قد انتشرت في الأوساط الريفية قبل غيرها لتضررها ورغبتها في إحداث التغيير.

وإذا كان لابد من خلاصة لهذا الموضوع فإنه يمكن القول أن المستشرق (بارتولد) تمكن، بفضل العمل الجاد في حقل التاريخ الإسلامي في المشرق من الانتصار على النظريات التي غلبت على الفكر الأوروبي في أواخر القرن 19 وبداية القرن 20، والتي اتخذت منهج العنصرية وموقف الإزدراء واللامبالاة من شعوب المشرق مطية لكتاباتهم التاريخية حول قضايا عديدة وحساسة في تاريخ الشرق.

ولقد أكد بارتولد في أكثر من مناسبة بأن لشعوب الشرق تاريخ وتجربة إنسانية فريدة من نوعها في العالم، وذلك ردا على الفكر الأوروبي القائل بأن (شعوب الشرق لا تاريخ لها ولن يكون لها تاريخ بالمعنى المفهوم لذلك اللفظ في أوروبا).

ومن خلال الأبحاث الواسعة التي قام بها في تاريخ المشرق الإسلامي قد "بارتولد" الدليل العلمي على إمكانية تطبيق المناهج الحديثة على تاريخ الشعوب الشرقية والخروج بعدها بنتائج منطقية وعلمية يمكن الإعتماد عليها في بناء سرح التاريخ العربي الإسلامي.

الـهوامش:

(1) ولد عام 1869 بمدينة بطر سبرج وعاش في أسرة ميسورة وفرت له تعليما منذ الصبا، وولع بدراسة اللغات الشرقية منذ شبابه، أكمل دراسته الثانوية عام 1887 بتفوق، ومنذئذ عهد نفسه على التفرغ وتكريس مجهوده، لدراسة تاريخ المشرق في العصور الوسطى، فتعمق في دراسة اللغة العربية والفارسية والتركية.

(2) كتب له رسالة عام 1891 ولم يكن عمره قد تجاوز الإثنين والعشرين سنة جاء فيها (لا نكاد نلتقي بعالم واحد حاول فحص فترة قصيرة من تاريخ آسيا الوسطى وفقا للمنهج المقارن، أي تطبيق قوانين التطور التاريخي التي طبقت من قبل على التاريخ الأوروبي، وواقع الأمر أنه حتى هذه اللحظة لم يجر التفكير في تدريس تاريخ آسيا بطريقة علمية دقيقة...).

(3) عاش في ما بين عامين 1848–1892.

(4) عاش في ما بين عامين 1836–1930.

(5) Mir islam

(6) ألف ما يقارب من مائتين وست وأربعين مقالة Articles في دائرة المعارف الإسلامية ذات الشهرة العالمية والتي لا يمكن لأي باحث في التاريخ الإسلامي الاستغناء عنها.

(7) صدر هذا القرار في 21 يونيو 1960.

(8) إلى جانب ما ترجم عنه من مقالات في دائرة المعارف الإسلامية التي نقلت بعض أجزائها إلى العربية، هناك بعض المؤلفات منها: –تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة د.أحمد السعيد سليمان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1960. تاريخ الحضارة الإسلامية ترجمة طاهر حمزة، دار المعارف، القاهرة، 1د، 1958.

(9) قام الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم بترجمة هذا الكتاب الضخم، وقد بذل في سبيل ذلك مجهودا معتبرا يشكر عليه، فهو إلى جانب الترجمة الدقيقة قام بمقابلة النص الروسي بالنص الانكليزي، وأشار بدقة إلى المصادر التاريخية الإسلامية، وصحح عددا هاما من المصطلحات وغير ذلك من الأعمال التي لولاها لما كان ظهر هذا الكتاب في هذا المستوى من الدرجة والإتقان، وإلى جانب ذلك أجاد قسم التراث العربي في الإشراف على طبعه الطباعة الجيدة، الكويت ط1، عام 1401م/1981م.

(10) طبع لأول مرة عام 1900، وظهرت ترجمة إلى العربية سنة 1981 على يدي صلاح الدين عثمان سالف الذكر، الذي كانت صلته بهذا الكتاب تزيد عن ثلاثين سنة، كما أشار إلى ذلك في مقدمة الكتاب.

(11) أنظر، الملحق الأول من رسالة تركستان، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ص 437–446.